فى الاشتقاق الكبير

للاستاذ الشيخ ابراهيم حمروش عضو مجمع اللغة العربية الملكى

النظر فى اللغة قد يكون لمعرفة المعانى الحقيقية والمجازية للألفاظ ، ولا يتجاوز ذلك إلى معرفة ما بين المعانى المتعددة من جهات جامعة ، ومعان عامة مشتركة . وهذا النظر لا يؤدى إلى استنباط القواعد ، واستخراج الضوابط ؛ وغايته معرفة معان متفرقة لا يهتدى إلى صلة بينها ، ولا يعرف ما فيها من معان مشتركة تجمع متعددها . وقد يكون النظر فى اللغة لمعرفة الجهات الجامعة ، والمعانى العامة ، التى تظهر بها المعانى المتعددة فصائل مختلفة ، وفرقا كثيرة ، يجمع كل فرقة معنى عام ، ترجع أفرادها إليه ، وتشترك فيه ، وبه تمتاز الفرقة عن غيرها .

وهذا نظر الاشتقاقيين الذى مكنهم من رد الكلمات التى اشتركت فى معنى واحد بعضها إلى بعض ، بالقلب والإبدال ، وأطلعهم على سر تولد اللغة ونموها .

وقد وضعوا قاعدة يعرف بها اتصال معانى الكلمات ، فقالوا " إن كل كلمتين اتفقتا فى الفاء والعين كان بين معنييهما اتصال" .

ولم تكن قاعدتهم هذه مبتناة على أن الفاء أو العين مَقْطَعٌ حُكى به بعض الأصوات الطبيعية للأجسام والحيوان ، كهبوب الريح ، وخرير الماء ، ومُواء الهر ، وصهيل الخيل ، وغير ذلك .

يدل على ذلك أنهم أطلقوا القاعدة ولم يقيدوها بشئ ، وأنْ ليس فى كلامهم إشارة إلى حكاية الأصوات . وقد ذكروا لقاعدتهم أمثلة كثيرة ، نذكر منها مثالا واحدا :

قالوا : إن الهمزة والباء مدلولها النفور والبعد والانفصال بين الشيئين . انظر : أَبَّ وأَبَتَ وأَبَدَ وأَبَرَ وأَبَزَ وأَبَقَ وأَبَلَ وأَبَنَ وأَبَهَ وأَبَى . يقال : أبّ للسير : تهيأ له . وأَبَتَ اليوم : اشتد حره ، فقطع الناس عن أعمالهم . وأَبَدَ الوحشُ : نفر .

وأبر النخل قطع شيئا منه . وأبز الظبي : وثب وانطلق . وأبق العبد : نفر عن مولاه . وأبل : توحش . وأَبَن زيد عمرا : ذكره بسوء ، ففصله بذلك الذكر عن الخير والصلاح . وأبه عن الشئ : تنزه عنه . وأبى عن الضيم : فرّ عنه ، وهكذا سائر تراكيب الهمزة مع الباء الموحدة ، فإنك تجد بكل واحد منها شيئا من ذلك إذا أمعنت فى النظر ، انتهى كلامهم .

ونحن نذكر لك باقى الأبنية ، فمن ذلك يقال : أَبَثَ على الرجل يأبِث أَبْثا : سبه عند السلطان خاصة . وقال أبو عمرو : وأَبِثَ الرجل (بالكسر) يأبَثُ : وهو أن يشرب اللبن حتى ينتفخ ويأخذه كهيئة السُّكر ، وفى كلا المعنيين فصل عن الإكرام ، وبعد له عن الحالة الطبيعية .

وأبَس — يقال : أَبَسه يأبِسه أَبْسا : حقَره وصغّره ، وعن ابن الأعرابى : أَبَسه وأبّسه : غاظه وروّعه ، وفى هذين المعنيين فصل له عن التعظيم ، وبعد له عن حالة الأمن .

وأبش — يقال أبش لأهله يأبِش أبْشا : كسب . ورجل أَبّاش : مكتسب . والكسب يكون عادة مع البعد عن الديار والسير فى الأسواق .

وأبص — يقال : أبِص يأبَص أبصا : أَرِنَ ونَشِط ، وفى الأرَن والنشاط مفارقة المكان ، وفصل عن حالة السكون .

وأبض — يقال : أبض البعيرَ يأبِضه ويأبُضه : شد رسغ يده إلى ذراعه لئلا يَحْرِد . وفى شد رسغه فصل له عن الأرض .

وأبَطَ — قال ابن الأعرابى : أبطه الله وهبطه بمعنى ، وفى الهبوط بعد عن الحالة التى كان عليها الهابط قبل الهبوط .

وأبك — الجوهرى أهْمَل هذا البناء ، وقال صاحب لسان العرب : ورأيت فى نسخة من حواشى الصحاح ما صورته " فى الأفعال لابن القطاع : أبِك الرجل أبَكا وأبُكا : كثر لحمه" .

وربما يقال : إن المعنى العام موجود فى هذا البناء ، لأن فى السَّمَن بعدا عن النحافة وفصلا عنها .

و إن كان لا يروقك هذا ؛ لأنك ترى فى النحافة بعدا عن السمن ، بل ترى فى تحقق معنى كل فعل فصلا عن ضده و بعـدا عنه ، فيمكن أن يقال إن اتصال معانى الأبنية التى اتفقت فى الفاء والعين إنما يتحقق إذا كان اتفاق الأبنية فى العين والفاء أصليا ؛ لم ينشأ عن قلب أو إبدال ، ويُدّعى أن أبك مقلوب باك ، يقال : باكت الناقة : سمنت .

ثم لا يخفى أن بعض الأبنية المتقدمة قد استعملت فى معان غير المعانى التى ذكرت ، فمن ذلك أب ، يقال : أبَّت أبابةُ الشئ : استقامت طريقته .

وأبد — يقال : أبَد الرجل بالمكان يأبِد : أقام .

وأبل — يقال : أبل الرجل : كثرت إبله ، وأبَلَتْ الإبل بالمكان أبولا : اقامت به .

وبالنظر فيما تقدم نعرف :

أولا — أن الاتصال بين معانى الأبنية التى اتحدت فاؤها وعينها ، تارة يكون بسبب اندراج معانيها تحت المعنى العام ، كما فى أبق العبد ، وأبز الظبى ، وأبر النخل . فإن فى كل من هذه الأبنية بعداً وانفصالا خاصين ؛ يندرجان تحت البعـد والانفصال العامين . وتارة يكون بسبب تحقق المعنى العام ووجوده عند وجود معنى البناء الثلاثى ، فيكون المعنى العـام لازما لوجود معنى الكلمة الثلاثية ، كما فى أبت اليوم ، فان معناه : اشتد حره ، وعند وجود اشتداد الحر يوجد انفصال الناس عن أعمالهم . وليس هناك اندراج أحدهما تحت الآخر ، فإن اشتداد الحر شئ ، وفصل الناس عن أعمالهم شئ آخر . ومثل ذلك أبث ، وأبن زيد عمرا ، فإن السب عند السلطان يوجد معه الفصل عن التعظيم ، والبعد عن الإجلال . وكذا

يوجد ذكر الإنسان بسوء ، فيوجد فصله عن الخير والصلاح ، وليس هناك اندراج أحدهما تحت الآخر . وتارة يكون الاتصال بسبب أن معنى البناء الثلاثى لا يوجد إلا بعد تحقق المعنى العام ، كما فى أبش ؛ فإن الكسب لا يوجد عادة إلا بعد البعد عن الرحل ، والسير فى الأسواق ، وليس أحدهما مندرجا تحت الآخر فإن الكسب شئ ، والمعنى العام شئ آخر .

ثانيا — أن الاتصال بين معانى الأبنية الثلاثية إنما يتحقّق بين بعض معانى الأبنية المذكورة لا كلها ، فقد عرفت أن بعض الأبنية استعمل فى معان أخر ؛ لا يتحقق فيها الاتصال بباقى معانى الأبنية . فان (أبد) استعمل فى ضد المعنى العام ، وهو أقام . وكذا (أبل) .

ويمكن أن يقال : إنهم ينظرون فى قاعدتهم السابقة إلى المعانى الأصلية ، دون المعانى التى استعملت فيها الأبنية بطريق التوسع الذى جرى فيه العرب إلى غايته ، حتى استعملوا اللفظ فى ضد معناه .

ونرى أن هـذه القاعدة عرض لها التخلف فى بعض المواد ، إذ تحقق فيها اتفاق الكلمتين فى الفاء والعين ، مع أن المعانى متفرقة ، لا يجمعها معنى ، ولا يوجد فيها جهة جامعة . ومن المواد ما تجرى هذه القاعدة فى أكثر ابنيتها ، ولا تجرى فى كلها . ونذكر ثلاثة أمثلة : مثالا جرت القاعدة فى جميع أبنيته ، ومثالا جرت فى أكثر أبنيته ولم تجر فى الجميع ، ومثالا تخلفت القاعدة فى جميع أبنيته .

المثال الأول :

الراء والخاء مدلولها اللين والسهولة ، وقد جاء من الثلاثى :

رَخَّ — يقال : رخَخْت الشراب : مزجته . ورخ العجين يرخ : كثر ماؤه — والرَخُخ : السهولة واللين . والرخاخ : الرخو من الأرض . قال ابن الأعرابى : أرض رخّاء : رخوة لينة واسعة ، وأرض رَخاخ : لينة واسعة ، ورخاخ العيش : خفضه ورغده .

ولم يجئ فعل من رخد ، وإنما جاء رَخود ، ومع هـذا قد وجد فيه المعنى المتقـدم ، فان الرَّخود من الرجال : اللين العظام ، الرخوها . ويقال : رجل رَخود الشباب : أى ناعمه ، وامرأة رَخودة : ناعمة .

رخص — يقال : رَخُص رَخاصـة ورُخوصة ، فهو رَخْص ورَخيص ، والرَّخص والرخيص : الناعم . والرّخص : ضد الغلاء ، يقال : رخُص السعر يرخص رخصا ، فهو رخيص . ورخص له فى الأمر : أذن له فيه بعد النهى ، والاسم الرُّخصة ، وهى خلاف التشديد ، ومن ذلك رُخَص الشارع التى رفَّه بها عن عباده ، وسهل عليهم الخروج بها من عهدة التكليف .

رخف — يقال : رخِف العجين (بالكسر) رَخَفا (مثل تعب تعبا) ورَخُف يرخُف رخفا ورخوفة ورخافة : كثر ماؤه حتى يسترخى . ويقال لذلك العجين الرخْف . ويقال : ثريدة رخفة : أى مسترخية ، والرخفة : الزبدة المسترخيـة الرقيقة ، والطين الرقيق ، يقال : صار المـاء رخفة ورخيفة : أى طينا رقيقا .

رخل — لم يجئ من هذه المـادة فعل ، والرَّخْل والرِّخْل : الأنثى من الضان ، والجمع أرخل ، وهى ألين جانبا من الذكر ، لمـا فيها من الأنوثة .

رخم — يقال : رخم الكلام والمنطق رخامة فهو رخيم : لان وسهل ، ويقال كلام رخيم : أى رقيق ، ورخمت الجارية رخامة فهى رخيمة الصوت ، ورخيم : إذا كانت سهلة المنطق . والترخيم : التليين . ومنه الترخيم فى الأسماء ، وهو أن تحذف من أواخرها حرفا أو أكثر ، ليسهل النطق بها .

رخى — يقال : رخى ورخو رخاء ورخاوة ، والرخو مثلثة الراء : الهش من كل شىء يكون فيه رخاوة ، ويقال : فرس رخوة سهلة مسترسلة ، والرَّخاء : سعة العيش . والريح الرُّخاء . اللينة السريعة . ويقال : فلان رخىّ البال : إذا كان فى نعمة واسع الحال .

قال لقيط بن زُرارة :

أُمَشِّي فى بنى عُدُس بن زيد ... رَخِىَّ البال منطلق اللسان

وإذا نظرت فى جميع الأبنية المتقدمة وجدت أن المعنى العام — وهو اللين والسهولة — يوجد فى جميعها ، وبذلك تتصل معانى الأبنية بعضها ببعض .

المثال الثانى :

السين واللام — يدلان على خروج شىء من آخر ، وقد جاء من هذا سلا — يقال : سلأ السمسم : عصره فاستخرج دهنه ، ويقال سلأ الجذع والعسيب : نزع شوكهما .

سلب — يقال : سلب الذبيحة : إهابها وكراعها وبطنها ، وسلب الرجل : ثيابه ، ويقال : سلبته أسلُبه سلبا وسَلَبا : إذا أخذت ثيابه ، والسلب : مايسلب . وكل شىء على الإنسان من اللباس فهو سَلَب ، ويقال : ناقة سالب وسلوب : مات ولدها أو ألقته لغير تمام . وسلب القصبة والشجرة : قشرها .

سلت — يقال : سلت المعىَ يسلِته سلتا : أخرجه بيده . وسلتت المرأة الخضاب عن يدها : إذا مسحته وألقته . وسلت القصعة من الثريد : إذا تتبع ما فيها وأخذه بأصبعه . ويقال : سلت أنفه بالسيف : جدعه .

سلج — يقال سلجت الإبل تسلُج سلوجا : أكلت السَّلَّجَ فانطلقت بطونها . وعن بعض أعراب قيس : سلج البعيرُ الناقةَ : إذا رضعها .

سلح — يقال : سلح الطائر سلحا من باب نفع ، وهو منه كالتغوُّط من الإنسان ، وهو سلحة ، تسمية بالمصدر .

سلخ — يقال : سلخ الإهاب يسلَخه سلخا : كشطه فأخرج ما حـواه ، وسلخت المرأة عنها الدرع : نزعته .

ويقال : انسلخ الليل من النهار : خرج منه خروجا لا يبقى معه شيء من ضوئه ، لأن النهار مكوَّر على الليل ، فإذا زال الضوء بقى الليل غاسقا قد غشى الناس ، ويقال : انسلخ الرجل من ثيابه ، والحية من قشرها .

سلس — يقال سلِس بول الرجل : إذا كان يخرج ولا يقدر على استمساكه . وللان سلس البول : إذا كان لا يستمسكه ، يقال رجل مسلوس : ذاهب العقل .

سلط — يقال : سلُط فهو سليط ، أى فصيح حديد اللسان بيِّن السلاطة أو السلوطة ، ويقال : امرأة سليطة أى حديدة اللسان وطويلته .

سلع — يقال : سلِع جلدُه بالنار سلعا ، وتسلع : تشقق . والسلْع : الشق يكون فى الجلد والعقب .

سلغ — يقال : سلَغت البقرة والشاة ، تسلَغ سلوغا : إذا أسقطت السن الذى خلف السَّديس ، فهى سالغ . ويقال : سلغت الشاة إذا طلع نابها .

سلف — يقال : سلَف يسلُف سلفا مضى ، والقوم السُّلاَّف المتقدمون . وسلفُ الرجل : آباؤه المتقدمون ، ويقال سلفت الناقة سلوفا : تقدمت فى أول الورد .

سلق — يقال : سلَقه بالسوط نزع جلده . ويقال : سلقت اللحم عن العظم إذا نحيته عنه .

سلك — يقال : سلكه فى الشيء أدخله فيه . قال تعالى : "مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ" أى ما أدخلكم فيها ، ويقال : سلك الخيط فى الإبرة ، وسلك السنان فى المطعون ، بمعنى أدخل .

سل — والسل : انتزاعك الشيء وإخراجه فى رفق . يقال : سل الشعرة من العجين أخرجها ، وسل سيفه : أخرجه من غمده ، وهو سليل ومسلول .

وقد توسعوا فى ذلك فقالوا : سل السخيمة من قلبه ، قال الشاعر :

وما زالت رُقاك تسُل ضِغْنى وتخرج من مكامنها ضِبابى

سلم — يقال سلم من المرض : برئ منه ، وسلم من المكروه والآفات : نجا .

سلا — يقال سَلَيْتُ الناقة : أخذت سلاها ، وسَلِيَتْ الشاة : تدلى ذلك منها . والسلا : الجلدة الرقيقة يكون فيها الولد للناس والخيل والإبل ، والجمع أسلاء ، وقال أبو زيد : السلا : لفافة الولد من الدواب والإبل ، وهو من الناس : المَشِيمة .

و بالنظر فى الأبنية المتقدمة نرى أن المعنى العام محقق فى جميع الأبنية ، عدا سلك ، فان معناه الدخول ، وهو ضد الخروج .

المثال الثالث :

الطاء والنون ، وقد جاء من الأبنية الثلاثية :

طنأ — يقال : طنأ يطنأ إذا استحيا و يقال : طَنِيء البعير يَطْنَأُ إذا لزق طحاله بجنبه ، وكذا الرَّجُل . ويقال أيضا . طنى يطنى من غير همز ، ويقال : طَنِي الرجل فى الفجور : مضى فيه .

وطنب — يقال : طنِب الفرس طَنَبًا : طال ظهره .

وطنح — يقال : طنِحت الإبل : سمنت .

وطنخ — يقال : طنِخت الابل : بشمت .

وطنف — يقال : طنِف الرجل يطنف : فسدت دخلته .

وطن — يقال : طن الذباب يطن : صوّت .

وإذا نظرت فى معانى هذه الأبنية وجدتها متفرقة لا يجمعها معنى، ولا يتصل بعضها ببعض ؛ فإن طول ظهر الفرس لا يتصل بتصويت الذباب ، وسمن الإبل لا يرتبط بمض الرجل فى الفجور ، وهكذا باقى المعانى — ومن هنا نعرف أن القاعدة المذكورة ليست مطردة فى جميع المواد .

والقائلون إن اللغة نشأت من حكاية الأصوات الطبيعية للأجسام والحيوانات ؛ يقولون : إن الأبنية الثلاثية التى تتفق فى الفاء والعين يجب اتصال معانيها إذا كان البناء الثنائى حكاية بعض الأصوات . أما إذا لم يكن حكاية ؛ بأن كانت الأبنية الثلاثية من الألفاظ التى تفرعت بوسائط متعددة عن الأبنية التى حصلت بها الحكاية فلا يجب تحقق الاتصال .

وذلك لأنهم يقولون : إن الأصوات الطبيعية هجاء واحد — إما ساكن لا يمكن النطق به ابتداء ، فيجلب له حرف متحرك توصلا للنطق به ، فيصير بناء ثنائيا كما فى "رن" فإن الهجاء الأصلى النون الساكنة التى تحكى صوت الرنين ، ولما كانت ساكنة جلب لها حرف الراء فوجد بناء "رن" .

وإما متحرك بحركة ممتدة يتولد عنها حرف لين، إما واو أو ألف أو ياء، كما فى مواء الهر ، فإن الهجاء الأصلى الميم المتحركة بحركة ممتدة تولد عنها الواو ، فوجد البناء "مو" .

ولما كانت الأبنية الثنائية قليلة جدا لا تنهض بالدلالة على المعانى الكثيرة التى تتطلبها حياة الإنسان الاجتماعية ، قضت الضرورة بزيادة الحرف الثالث فزيد ، لكن بملاحظة وجود معنى البناء الثنائى فى جميع الأبنية الثلاثية ، كما فى "صخ" فإنه حكاية صوت ضرب الحديد بالحديد، أو إلقاء العصا الصلبة على شىء مصمت . والهجاء الأصلى الخاء الساكنة ، وقد جلب لها حرف الصاد المتحرك توصلا للنطق بها .

وقد جاء من الثلاثى :

صخ — وهو البنـاء الثنائى بزيادة مجانس العين، لتقوية المعنى ، لأن زيادة المجانس تفيد ذلك .

وصخب — يقال : صخب الرجل يصخب، والصخب : الصياح والجلبة .

وصخد — يقال صَخَد الصرد ، والصخد صوت الصرد .

ومعنى البناء الثنائى — وهو الصوت — متحقق فى جميع الأبنية الثلاثيـة المذكورة .

ومن هذا البيان يعلم أن قاعدة الاتصال عند هؤلاء أخص من قاعدة السابقين وأنها جزء متمم لمذهب القائلين بأن اللغة نشأت من حكاية الأصوات على حسب ما شرح به مذهبهم سابقا، وأن صحة المذهب المذكور متوقفة على اطراد هذه القاعدة وعدم تخلفها فى مادة من المواد، إلا إذا شرح مذهبهم على وجه آخر لا تكون قاعدة الاتصال جزءا منه .

وتتبع المواد يحقق عدم اطراد هذه القاعدة .

انظر مادة "سل" تجدها حكاية صوت خروج السيف الصقيل من غمده ، وفيها اعتبار أنها صوت ، واعتبار منشأ الصوت وهو الخروج ، وقد جاءت الأبنية الثلاثية باعتبار الخروج ، فان سلأ ، وسلب ، وسلت ، وسلج ، وسلح وسلخ ، وسلع ، وسلغ ، وسلف ، وسلم ، تدل على الخروج ، ولم يوجد معنى البناء الثنائى فى "سلك" .

و "ثر" فانها حكاية صوت يسمع عنـد فوران المـاء وثورانه وثرثرته ، وفيه اعتبار أنه صوت ، واعتبار الكثرة التى نشأ عنها الصوت .

وجاء من الثلاثى :

ثرّ — يقال : ثرّت العين تثر . وعين ثَرَّةٌ وثَرَّارة وثرثارة : غزيرة الماء . وسحاب ثَرٌّ : كثير الماء . وعين ثرة : كثيرة الدموع . ورجل ثر وثرثار : متشدِّق كثير الكلام ، والأنثى : ثرة وثرثارة . والثرثار : نهر بعينه ؛ قال الأخطل :

لعمرى لقد لاقت سُلَيْمٌ وعامر على جانب الثَّرْثار راغيةَ البكر

ومعنى الكثرة موجود فى هذا البناء .

ثرب — يقال : ثرب به : عذله ولامه .

وثرط — يقال : ثرطه ثرطا : زرَى عليه وعابه .

ثرع — عن ابن الأعرابى : ثرِع الرجل : إذا طفَّل على قوم .

ثرم — يقال : ثرِم يثرم سقطت ثنيته : وثرَمه يثرمه : ضربه فسقطت ثنيته .

وثرى — يقال ثرى القوم ثراء : كثروا ونموا ، وثرى الرجل وأثرى : كثر ماله وثرى المالُ نفسه يثرو إذا كثر .

وقد وجد معنى البناء الثنائى فى بعضها باعتبار أنه صوت ، وفى بعضها باعتبار الكثرة ، ولم يوجد فى ثرع لا بالاعتبار الأول ، ولا بالاعتبار الثانى .

وطن — فانها حكاية صوت وقوع الذراع المقطوعة على الأرض ، وفيه اعتبار الصوت ، واعتبار منشأ الصوت وهو القطع .

وجاء من الثلاثى :

طنأ ، وطنب ، وطنح ، وطنف ، وطنى ، وليس فى معانيها صوت ولا قطع إلا فى مادة طن ، فإن معناها الصوت . فلم يكن معنى البناء الثنائى موجودا فى أكثر الأبنية الثلاثية فى هذه المادة ، مع وجود اتحاد الأبنية الثلاثية فى الفاء والعين ، ووجود حكاية صوت الطنين فى البناء الثنائى .